العنونة في القصيدة العربية المعاصرة

عنت الدراسات النقدية المعاصرة عناية فائقة بقضية العنونة ، و ذلك لما للعناوين بنوعيها الرئيسية و الفرعية من أهمية بالغة في توجيه القراءة ، فقد غذت العناوين " مفتاحا تأويليا كاشفا تبقى أية دراسة نقدية للنص الإبداعي ناقصة من دون معاينته، و النظر إليه بجدية توازي النظر إلى النص " [1] و لهذا درج النقاد المعاصرون على افتتاح دراساتهم للنصوص بقراءة العنوان بوصفه عتبة منفصلة ، مستقلة بذاتها ثم قراءته في مرحلة تالية بوصفه نصا ينعكس فيه المتن . ليس العنوان إذن مجرد" " مجرد زائدة لغوية للعمل (...) لكنه ـ نظرا لاستقلاله الوظيفي ـ مرسلة كاملة، و مستقلة في إنتاجيتها الدلالية"[2] و لهذا تتقدم الوظيفة الدلالية للعنوان على وظائف الإغراء و التعيين و الوصف.

و العناوين تختلف في طبيعتها ، فهناك العناوين المكانية و الزمانية و الحدثية..إلخ.[3] و عندما يتعلق الأمر بالشعر العربي المعاصر نجد أنفسنا أمام عنوان المجموعة الشعرية ، ثم عنوان القصيدة ، و داخل القصيدة نفسها قد نجد عناوين فرعية لا يمكن إغفالها أثناء التحليل النصي.

ويمكن أن نمثل لذلك بمجموعة الشاعر عز الدين ميهوبي " ملصقات" التي اتخذت في الحقيقة عنوانين العنوان الأول كبير " ملصقات" والثاني صغير " شيء كالشعر" [1]. ويتساءل من يتناول المجموعة حول مغزى الغلاف، وهذه العناوين وعلاقتها بمحتوى المجموعة، فيجد أكثر من دلالة.

يتموضع العنوان الرئيسي بشكل عمودي ليحتل مساحة الغلاف من الأعلى حتى الأسفل، بحروف كبيرة تنطوي على ورق الجرائد، ربما إشارة من الشاعر إلى كون هذه القصائد هي الملصقات التي تشبه لافتات أحمد مطر، والتي كان الشاعر عز الدين ميهوبي ينشرها تباعا بجريدة الشعب الجزائري، والخط الكبير الذي يشكل عنوانا يبدو هو الرئيسي – كما أشرنا- فيه نوع من التأكيد على الجانب الإعلامي والتحريضي لهذه المقطوعات لأن التلصيق يكون في الغالب على الحائط ، وتهدف الملصقة

---

[1] -محمد صابر عبيد : إشكالية العنونة بين القصد و جمالية التلقي ، مجلة الموقف الأدبي ، العدد 374، 2002
[2] - محمد فكري الجزار : العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي ، ص35.

[3] ينظر شعيب حليفي : هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، دار الثقافة للنشر و التوزيع،المغرب،ط3 2007.
[1]– عزالدين ميهوبي : ملصقات شيء كالشعر ، منشورات أصالة ، سطيف ، الجزائر ، ط1 ، 1997.

إلى إعلام جميع الناس كما أنها تحمل في غالب الأحيان بعدا سياسيا . وبهذه الصورة يكون هذا العنوان مدخلا لائقا ومناسبا – على المستوى الدلالي- لمحتويات هذه المجموعة.

إذا انتقلنا إلى العنوان الأصغر" شيء كالشعر" نجده هو الآخر يمتلك خاصية الانسجام، سواء مع لفظة " ملصقات" أو مع محتوى الملصقات، فقد جاء صغيرا في أسفل الصفحة كما لو أنه وضع فقط لشرح العنوان الرئيسي، ما هي تلك الملصقات؟ إنها بعض الغضب السياسي، الاجتماعي، المقول في لغة وشكل يشبهان لغة الشعر وشكله.

إن للعنونة هنا وتموضعها على صفحة الغلاف سيمائيتها حيث أن تقديم السياسي على الشعري واضح فيها كما هو واضح في ثنائيات الملصقات بداخل المجموعة، إذ تتقدم دائما الوظيفة الإبلاغية على حساب الوظيفة الشعرية، لأن هم الشاعر أكبر من أن يكون إشكالية جمالية في وضع سياسي واجتماعي جزائري يشتعل غضبا والمجتمع كله نجم السياسة من شيخه إلى طفله.

وإذا تصفحنا قصائد الديوان وعناوينها نجدها في الحقيقة تنسجم انسجاما كبيرا، فيشكل العنوان عتبة البداية لباقي الملصقة، وسوف نمثل هنا بقصيدة الشاعر المعنونة بـ" حيطيست" يقول فيها:

من رصيف لجدار /من جدار لرصيف /من ربيع ، لشتاء، لخريف /ناسكا طول النهار /من رصيف لجداره/من جدار لرصيف /يده تسأل عن ظل رغيف /مر عام.../طلعت من كفه بعض شجيرات الخريف [1]

و"حيطيست" كما نعرف كلمة دارجة في اللهجة الجزائرية تدل على العاطل عن العمل، ونلاحظ هنا كيف أنها اختصرت أوصاف الحالة ،وهي وضعية الآلاف من الشباب الجزائري الذي لم يجد مهنة سوى الوقوف على الأرصفة أو إسناد الظهر إلى الحائط تأملا في حياة الآخرين وهدرا للزمن بشكل مأساوي.

يمكن أن نمثل للقصيدة الكثيفة بالعناوين الفرعية بنص عز الدين المناصرة المعنون بهذه الصيغة **" آ... وي...ها"** والذي يتضمن أربعة عناوين فرعية:

- 1- هل تذكر مطر موسكو؟ **- 2- زوار الفجر**

-3- طلت خيلينا **- 4- قولوا لمقبرة الشهداء... ألا يكفيك؟** [1]

---

[1]– المرجع السابق ، ص 66.
[1]– عزالدين المناصرة : جفرا ، ص53-66

وتبدو هذه العناوين بارزة بخط شديد السواد وحجمه أكبر من حجم خط النص، ولتلك العناوين دلالة بطبيعة الحال، فإذا تأملنا المقطع الأول بعنوانه الفرعي : هل تذكر مطر موسكو؟ نجد أن لفظة المطر تتكرر فيه خمس مرات:

- هل أفتح دفتر ذكراك في هذا الصبح الناعم والمفعم بالأمطار؟ [1]
- المطر شديد جدا في المنفى الرابع... والغيم القاتم يملأ دربي [2]
- المطر شديد يشبه تلك الأيام، ألا تذكر شجر البلوط والمنحدر قرب المدرسة الحربية [3]
- هل تذكر مطر الغربة حيث اندلعت عاصفة صيف الأخضر في موسكو [4]
- ورأينا موسكو تبكي مطرا أخضر كالبلور الناعم [5]

وإذا كان الشاعر يكرر استعمال سياقات المطر هنا، فلأن المطر مرتبط بزمن خاص هو زمن الغربة والحلم، حيث كان الشاعر رفقة " عمر المختار" رمز النضال، ينتظر أن يجيء ربيع ما، أن تجيء بيروت وكل المدن الحبيبة المسلوبة، ولو في الحلم، و يترافق ذلك مع صور العذابات الفلسطينية:

ورأيت الأطفال الكنعانيين يموتون/وسمعت نساء لا يبكين ، ولا يسترحمن القتلة [6]

المطر إذن ، وبالتحديد مطر موسكو، مرتبط في الذاكرة بزمن البرد والنفي والحرمان من المكان، لذا ينتقي الشاعر عبارة : هل تذكر مطر موسكو؟ من بين كل العبارات المشكلة للنص عنوانا فرعيا، يميز أيضا طباعيا بزيادة حدة اللون في الخط.

وإذا أخذنا العنوان الآخر الذي يشكل إشارة مكانية " قولوا لمقبرة الشهداء...ألا يكفيك"نجد أن هذه العبارة على العكس من المقطع السابق لا تتكرر في المقطع الشعري الذي يندرج تحت هذا العنوان إلا مرة واحدة، وليس بحرفيتها، وهذا لا يعني أن العنوان الفرعي المميز طباعيا وضع اعتباطا ولكنه مرتبط ببكاء الشاعر لافتقاده الفلاح " الثائر":

---

[1]– المصدر نفسه، ص53
[2]– المصدر نفسه ، ص54
[3]– المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]– المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[5]– المصدر نفسه ، ص56
[6]– المصدر نفسه ، ص 55.

هو فلاح من بلدة " رمون" /وبعشق الثورة مجنون/أعرفه في بيروت وفي برلين /قمرا مؤتلقا وشجاعا... وحزينا/كنا في المؤتمر الدولي/ نحمل شارات فلسطين [1]

إن العنوان هنا يعتبر إجابة عن تساؤل القارئ حول بكاء الشاعر، وهو بكاء يجسد اتساع قائمة الشهداء إلى الحد الذي جعل الشاعر يصرخ: قولوا لمقبرة الشهداء... ألا يكفيك؟. إن هذا المقطع وإن استغرق في سرد حميميات الشاعر مع هذا الفلاح واشتراكهما في النضال وفي تعزية بعضهما البعض، فهو مغلف بهاجس الموت لأنه لا شيء غير الموت، فلا يجد الراوي إلا أن يوصي المكان/ العنوان بهذا الفلاح:

قولوا للشجر الوارف في مقبرة الشهداء/هو فلاح من بلدة " رمون"[2]

[1]– المصدر السابق ، ص63- 64
[2]– المصدر نفسه ،ص66.